كانت نفس إيفان بحاجة إليه هو أن يعود ابنه الى الحياة وكان هـذا بعيد المنال . كان الأطباء عاجزين . وفي التاسع عشر من تشرين الثاني نوفمبر ١٥٨١ توفي ولي العهد . كان القيصر في الحادية والخمسين وابنه في السابعة والعشرين .

في الثاني والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر لبس جميع أفراد البلاط ثياب الحداد وقدموا في موكب مـن الكسندروف الى موسكو يحرسون العربة التي تحمل جثمان ولي العهد . وأقيمت له جنـازة حافلة . وكان إيفان يقتلع شعر رأسه وينتحب مظهراً من الألم ما لم يظهره منذ موت أناستاسيا . ولكن بعكس ما جرى يومذاك فإنه لم يقفز هذه المرة من الحداد الى الفجور لأن انهياره كان كاملا . وقد دفع مبالغ طائلة لتخليد ذكرى ابنه أمام الله واعترف أن حياته لم يعد لها هدف وانها اصبحت خواء . وعاد من جديد الى أفكاره في التخلي عن العرش واصبح له أكثر من اي وقت مضى هيأة رجل فقد الإتزان . لم يعد يهتم بملبسه الذي أهمله إهمالاً كاملاً منذ ذلك الوقت ، وصار رجال حاشيته يتجنبوه كما كان يتجنبهم هو نفسه ، وفي كل ليلة كان يسقط من فوق سريره ، وكمن يمشي في نومه كان يطوف في أرجاء القصر كأنه يبحث عن ابنه المفقود ، وفي الصباح كانوا يجدونه مستلقيا في اي مكان على الأرض كما لو أنه مغمي عليه .

في هذه الحالة العقلية جمع البويار واحاطهم علماً بأنه عازم على التخلي عن العرش لكي يجد راحة النفس في أحد الأديرة . « إن ابني الصغير فيدور لا يصلح للحكم فينبغي استبعاده . فاختاروا لكم قيصراً ، وعندما يقع اختياركم على أحد ابلغوني كي أتخلى له طواعيه عن صولجاني وتاجي » . إلا أن العرض كان خطراً للغاية . ومهما كانت مشاعر المجتمعين فإنهم توسلوا بصوت واحد الى القيصر الذي منحه الله لهم بأن يبقى على رأسهم حتى نهاية ايامه . وتنهد العاهل ، وكما لو أنه كف عن معارضتهم وعدهم من اجل إرضائهم بأن يتابع إدارته الخيرة فوق رؤوسهم .